الصورة المنطقية عند الغزالي في أصولها الأرسطية وبعدها الإسلامي

الأستاذ : بوصالح مراد
جامعة 'زيان عاشور' الجلفة – الجزائر

إن الكتابة عن حياة مفكر مثل " **الغزالي أبو حامد** " (1058–1111م) ليس بالأمر الهين، خاصة إذا ما كان الغرض من هذه الدراسة ، الانطلاق منها وجعلها القاعدة الصلبة التي تعالج على ضوئها أية مسألة أو قضية مثلما فهمها وتصورها هذا المفكر.

وقد ترجع الصعوبة إلى اختلاف وتضارب مواقف الدراسيين له، تضاربا يصعب معه الجمع بينهما، خاصة لمن يريد أن يرسم مجرى محددا، واضح المعالم لحياة هذه الشخصية الفكرية الهامة في التاريخ الإسلامي.

لقد كان" **الغزالي** " من أكثر مفكري الإسلام أصالة وإبداعا وقد قال عنه" **رينان renan** " مع نزعته العنصرية المعروفة «ان الغزالي– أبا حامد–هو بدون منازع أكثر عقول الإسلام متانة وأقواها على الخلق والإبداع» **(1)** –فهو من أغزر مفكري الإسلام مادة ، ومن أكثرهم إنتاجا وتنوعا، فقد ألف في الكلام والفلسفة ،والأصول، والتصوف ، والمنطق، والأخلاق، والفقه، وبذلك كان فيلسوفا موسوعيا، ومفكرا صاحب مشروع فكري قويم، كرس حياته كلها لبنائه وبلوغ أهدافه.

وأنه لمن الصعوبة بما كان الوقوف على رأي "**الغزالي** " وتحديد موقفه من أي إشكالية معرفية أو فكرية دون ربطها بمشروعه الفكري ، وبالمنهج سلكه لتحقيق أهدافه وان كان هذا المشروع قد عرف بعض السقطـــات –العثرات– وأحيانا تناقضات سواء من حيث المنهج، أو من حيث الانسجام بين المنطلقات والنتائج المتوصل إليها أو من حيث عدم الاستقرار على رأي ثابت، وان كان هذا حال معظم الفلاسفة والمفكرين الكبار،لأن رأي الفيلسوف يتطور ويتأثر بالظروف الفكرية والسياسية والحضارية التي ينمو فيها.

وسأحاول من خلال هذه الدراسة المتواضعة ، أن أبين موقف **الغزالي** من المنطق الأرسطي، وأهميته في مشروعه الفكري.

–فإذا كانت غاية **الغزالي** – وهو المعروف بحجة الإسلام – هي الدفاع عن الدين ضد الفلاسفة اللاهوتيين اليونانيين ، والمسلمين منهم ، وإذا كان المنطق الأرسطي وهو عماد الفلسفة اليونانية التي تختلف في بعدها الميتافيزيقي عن روح الحضارة الإسلامية ،فهل سلك **الغزالي** مسلك الأصوليين المتكلمين ، والفقهاء السابقين

له ، الرافضين للمنطق الأرسطي والفلسفة اليونانية ،المتمسكين بالمنطق الإسلامي ؟ أم قبل الغزالي المنطق الأرسطي في حلته اليونانية ، وبالتالي نتاجه المنطقي عملا توفيقيا متعارضا في أساسه؟

إن اختيارنا لمسألة المنطق عند **الغزالي** كان لاعتبارات عدة منها:

أولا : إن المنطق منهج عقلي وصورة مجردة تعبر عن عقلانية آي مذهب أو نسق فكري ، وعن عمقه المعرفي، فهو تعبير عن نمط الفكر ووظيفته فيه معا ، ووسيلة لتأييد الفلسفات التي انطلق منها المنطق وعلى أبعادها اعتمد ، ولهذا انبرى بعض مفكري الإسلام إلى معارضة المنطق الأرسطي وتحريمه أحيانا ، باعتباره – في اعتقادهم – صورة صادقة عن العقلانية اليونانية في نظرتها إلى الوجود والمخالفة للعقلية الإسلامية.

ثانيا : تباين الآراء حول موقف **الغزالي** من المنطق الأرسطي فمنهم من اعتبر **الغزالي** أول من مزج المنطق الأرسطي بعلوم المسلمين ليعود إلى ذمة وتحريمه في آخر مساره الفكري 4 ، ومنهم من اتهمه بإبطال القياس الأصولي ؟

وفي تناولي لموقف **الغزالي** من المنطق الأرسطي وأهميته في مشروعه الفكري سأقتصر إنشاء الله تعالى على تبيان ورصد مواقفه المنطقية من خلال ما ألفه من كتب منطقية ، دون الغوص في التفاصيل الدقيقة لموضوعات ومسائل المنطق ، كالبحث في القضايا وأقسامها ، الألفاظ وعلاقتها بالمعاني، قواعد وأشكال القياس ، وغيرها من المباحث المنطقية ، مركزا على أهم النتائج المستخلصة والتي تعتبر إجابة أو تحليل للفرضيات والتساؤلات المطروحة في المقدمة.

وفي الحقيقة إن تحديد موقف **الغزالي** في أي موضوع من الموضوعات التي عالجها من الصعوبة بما كان ، –فقد عرف مساره الفكري تغيرات عنيفة ، اللهم إلا إذا اعتبرنا أن مؤلفاته الأخيرة قد تعبر عما استقر عليه رأيه ، لكن إذا تتبعنا مؤلفاته المنطقية من قسم المنطق في كتاب (مقاصد الفلاسفة) وهو أول كتاب له في المنطق ، إلى (معيار العلم) ، إلى (محك النظر) ، إلى مقدمة كتاب (المستصفى) ، إلى (القسطاس المستقيم)، إلى (المنقذ من الظلال) ، وهو آخر كتبه عرض فيه فكرته الأخيرة عن المنطق ، فإننا نكتشف أن موقفه من المنطق لم يتغير – وان كان البعض من المفكرين والدارسين يرون غير ذلك (2).

–ولتبيان الصورة المنطقية عند الغزالي أضع منذ البداية جملة من المقدمات استخلصتها من مجموع مؤلفاته المنطقية،ثم أسعى إلى تحليلها والبرهنة عليها من خلال مؤلفاته نفسها.

– **أولا :** يكاد يجمع معظم علماء المسلمين أن "الغزالي" أول من ادخل المنطق اليوناني إلى الأصول الإسلامية بشكل عريض وواضح في القرن الخامس هجري،لا لما وضعه من الكتب المنطقية بل لتلك المقدمة المنطقية التي وضعها في أول كتاب "المستصفي" الأصولي والتي قال فيها "أن من لا يحيط بها فلا ثقة بعلومه قطعا"(3) فقد جعل المنطق شرطا من شروط الاجتهاد ، وقد لقي هذا الموقف معارضة شديدة من طرف الكثير من المفكرين المسلمين ولعل أشدهم كان "ابن تيمية" (1263–1368) و "القشيري" (توفي

1167م) ،"وابن الصلاح" (توفي 1176م ــ 1246 م) الذي كان من اكبر المعارضين إذ قال"سمعت الشيخ العماد بن يونس يحكي عن يوسف الدمشقي مدرس النظامية –ببغداد– وكان من النظار المعروفين انه كان ينكر هذا الكلام ويقول : فأبو بكر وعمر وفلان و فلان فهؤلاء وصلوا إلى الغاية من اليقين ولم يكن احد من هؤلاء يعرف المنطق"–(4)

– **ثانيا** : لم يأخذ المسلمين الأوائل السابقين للغزالي بمنطق أرسطو، المتكلمين منهم والأصوليين بل كان لهم منطق إسلامي خاص تمثل عند الأصوليين في القياس الأصولي (قياس الشاهد على الغائب) ،الذي يختلف عن القياس الأرسطي ، بالإضافة إلى اعتماد المسلمين على بعض الطرق الاستدلالية الأخرى ، كإنتاج المقدمات النتائج (استنتاج آو استخلاص النتيجة من المقدمة بحيث تكون المقدمة ضرورية والنتيجة ضرورية) وطريقة السبر والتقسيم "تقسيم إلى مالا ينحصر في نفي واثبات" ، وطريقة بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول "ما لا دليل عليه يجب نفيه" ، وغيرها من الطرق الإسلامية التي لم يتأثر فيها المسلمون بالمنطق الأرسطي ، كما أن المتكلمين الأوائل وعلى رأسهم " **المعتزلة** "لم يأخذوا بالمنطق الأرسطي كمنهج في مجادلاتهم الكلامية (كما هو شائع عنهم)، بل كان لهم منهج مستقل ، وما يثبت ذلك أن " **الغزالي** "يهاجم المنهاج الذي يخرج عن الأخذ بمنطق أرسطو في اخذ المتكلمين بمقدمات مشهورة تسلموها من خصومهم واضطرهم إلى تسليمها لا القانون العقلي ـــــ وهو عنده منطق أرسطو الذي يقرر أن البديهيات هي وحدها التي ينبغي تسليمها وتوافرها ـــ بل لشهرتها يقول **الغزالي**" أن أكثر أقيسة الجدليين من المتكلمين والفقهاء في مجادلاتهم وتصانيفهم مؤلفة من مقدمات مشهورة فيما بينهم ، سلموها لمجرد الشهرة وذهلوا عن سببها ولذا نرى أقيستهم تنتج نتائج متناقضة فيتحيرون فيها وتتخبط عقولهم في تنقيحها"(5).

وهذا ما يثبت أن الغزالي أول من مزج علوم المسلمين بالمنطق الأرسطي ، وقد ارتبط ذلك بمشروعه الفكري،المتمثل في الدفاع عن الدين وكشف تهافت الفلاسفة وتناقضاتهم.

قد بدأ "**الغزالي**" ناقلا لمنطق أرسطو كما اطلع عليه من خلال "**ابن سينا**" (980 ــ1037 م) و"**الفارابي**" (870 ــ 950 م) وتدرج إلى موفق بين المنطق والعلوم الإسلامية ،إلى أن جعل المنطق علما إسلاميا منهجا ومصطلحا وطبعه بسمات العقلية العربية الإسلامية.

–فقد كتب "**الغزالي**" (مقاصد الفلاسفة) في بداية تلقيه العلم وتهيأ للرد على الفلاسفة ولم يميز في هذا الكتاب بين الحق والباطل ، وإنما قصد الشرح والتوضيح أي عرض النظريات تمهيدا لدحضها في كتاب آخر (تهافت الفلاسفة).

وبعد أن وجد الغزالي نفسه محتاجا إلى منهج عقلي ، ومعيار فكري يقوده إلى اليقين فقام بفصل المنطق عن الأبحاث الفلسفية، وأقره علما معياريا ممزوجا بخصوصيات إسلامية ، وجمع ذلك في كتاب(معيار العلم) واكتملت بكتاب (محك النظر) وفيه ألبس المنطق حلة إسلامية، ليتم بعد ذلك تهذيب المنطق ليخرج بكتاب(القسطاس المستقيم) للرد على "التعليمية" (6) ودحض مقدماتهم الجدلية، ثم أفرد بعد ذلك كتابه

المشهور (المستصفى من علم الأصول) ، وقد مهد له بمقدمة منطقية جعلها مدخل له ، بل هي مقدمـــــة العلـــــوم كلها ومن لا يحيـــــــط بها فلا ثـــــقة له بعــلومـــه أصلا.

ويعتبر كتاب (المستصفى) نموذجا للمزجية ، يقول **الغزالي** إن اشرف العلوم ما ازدوج فيه العقل والسمع واصطحب فيه الرأي و الشرع.(7)

أما عن مزج المنطق بأمثلة فقهية أو كلامية فيمثل كتاب " (معيار العلم) نموذجا لها يقول الغزالي"رغبنا في منهاج الكلام في هذا الباب أمثلة فقهية فتشمل فائدته وتعم سائر الأصناف جدواه وعائدته"(8) ، كما استعار الغزالي ألفاظ الفقهاء والمتكلمين والنحويين للتعبير عن قضايا ومسائل المنطق من اجل تبسيط معانيه وتبيئته بالبيئة العربية الإسلامية، فقد استعمل لفظ "**معرفة–علم**" للتعبير عن "**التصور–والتصديق**" متبعا بذلك النحويين، وعبر عن "**القضايا الكلية المجردة** "**بالوجوه والأحوال،** وهما تعبيران كلاميان واستعمل لفظ "**الأحكام**" وهو تعبير فقهي كما عبر عن "**الموضوع والمحمول**" **بالمبدأ والخبر** ، وهي لغة النحويين و**الحكم والمحكوم** وهي لغة الفقهاء **والصفة والموصوف** وهي لغة المتكلمين، بل إن **الغزالي** يضع اصطلاحات جديدة لبعض الموضوعات والمسائل المنطقية فسمى **القياس الحملي** "**بميزان التعادل**" و**القياس الشرطي المتصل** "**بميزان التلازم**"، و**المنفصل، بميزان التعاند** (9).

وكان الغرض من ذلك كله تبسيط وشرح مسائل المنطق وتلبيسه حلة عربية إسلامية ، وقد تجلى ذالك من خلال استخراج أصول القياس و مقدماته من القرآن الكريم ، و ذلك بالتعبير عن بعض الآيات القرآنية بأقسية منطقية، كما كان الغزالي أول من بين وجود أشكال القياس الثلاثة في القرآن الكريم

فالشكل الأول : في احتجاج سيدنا إبراهيم عليه السلام على انفراد الله بالإلوهية ونقيها عن النمرود بقوله تعالى: " فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فات بها من المغرب " (10) فهذا الدليل في صورة قياس من الشكل الأول على الصيغة التالية:

أنت لا تقدر أن تأتي بالشمس من المغرب

وكل من لا يقدر أن يأتي بالشمس من المغرب ليس بربي

فينتج : أنت لست بربي

-والشكل الثاني : في استدلال سيدنا إبراهيم بالأفول على عدم ألوهية النجم والقمر والشمس.في قوله تعالى : " فلما جن عليه الليل رأى كوكبا ، قال هذا ربي ،فلما أفل قال لا أحب الآفلين " (11)، وصورة القياس على صيغة :

هذا أو هذه آفلة أو آفل

وربي عز وجل ليس بآفل

ينتج : هذا أو هذه ليست بربي

الشكل الثالث : يتجلى في رد الله عز وجل على اليهود القائلين : " ما أنزل الله على بشر من شيء " (12) بقوله عز وجل : "قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس " (13) ، وهذا الدليـــــل في صورة قيـــــاس حمـــــلي مـــــن الشكل الثالث

وصورته:

-موسى عليه السلام بشر

-موسى عليه السلام انزل عليه الكتاب

بعض البشر أنزل عليه الكتاب

ثالثا : اعتماد المنطق كمنهج عقلي للدفاع عن الدين وكشف الحقيقة ورد حجج المخالفين وبيان تهافتهم

قد بدأ **الغزالي** حياته على أساس عقلي منذ صباه ، فقد كان التعطش إلى درك الحقائق دأبه منذ ريعان عمره ساعيا إلى تحديد العلم اليقيني (اليقين) وقد وجد في البرهان اليقيني – وهو المنطق – السبيل إلى ذلك ، واعتبره معيارا للحق ، وما دامت الفطرة الأصلية واحدة عند الناس جميعا ، فإنه يستطيع أن يبدأ منها بحثه عن اليقين خالصا من شوائب العقائد و الوراثة و التقليد .

وبهذا المعيار وقف **الغزالي** ضد المتكلمين الذين يبنون قياساتهم على **مقدمات ظنية** للدلالة على حقائق الإيمان و الدفاع عنها ، غير أن مثل هذه المقدمات لا تنتج إلا نتائج ظنية لا تصلح للاستعمال في العلم الضروري اليقيني (14) .

لقد كان مقصود علم الكلام لدى **الغزالي** هو حفظ العقيدة على إنسان نشأ مسلما وأخذ عقيدته من الكتاب والسنة ، أم أن يخلق علم الكلام عقيدة الإسلام في إنسان نشأ خاليا عنها غير مؤمن بها فهذا ما لم يكن من مهمته أو رسالته (15).

وقد وجه **الغزالي** لعلم الكلام نقدا مميتا فهو علم لا يبحث عن حقائق الأمور ، لأن مقصوده هو الدفاع عن عقيدة أهل السنة فقط ، لذلك يقول : فصادفته علما وافيا في مقصوده غير واف بمقصودي (16)

-وإذا كان **الغزالي** في أول أمره يبحث عن الحقيقة ، حقيقة الفطرة الإنسانية قبل الاعتقادات العارضة ، فانه في كتاب (التهافت) يمحص مزاعم الفلاسفة ليبين فساد أرائهم وتلبيساتهم و عجزهم عن إثبات ما يزعمون وذالك باستعمال سلاحهم– المنطق – والغزالي لا يجحد الفلسفة كأسلوب تفكير خصوصا في الطبيعيات و الرياضيات، فهي أمور برهانية لا سبيل إلى مجا حدتها، وإنما كانت ثورته على مناهج الفلاسفة (المشاءين) اليونانيين منهم والمسلمين (**الفارابي ، وابن سينا**) من أجل كشف تناقضاتهم في مجال الإلهيات متخذا سلاحهم نفسه ، وهو سلاح المنطق مبينا عجزهم ، وعدم وفائهم بما اشترطوه في صحة مادة القياس ، وما اشترطوه في صورته (17).

وباستعمال نفس المنهج العقلي (المنطق) تستمر ثورة **الغزالي** على " التعليمية " في إبطال دعا ويهم ببراهين منطقية ، و يعتبر كتاب (القسطاس المستقيم) مثالا رائعا لأساليب الحجاج العقلي من جهة ، ومثال عن الجمع

بين المنطق والوحي من جهة أخرى يقول **الغزالي** : " لا يتصور أن يفهموا ذالك الميزان ثم يخالفون فيه ، اذ لا يخاف فيه أهل التعليم ، لأنني استخرجته من القران الكريم ، وتعلمته منه ، ولا أهل المنطق لأنه موافق لما اشترطوه في المنطق ، وهو غير مخالف له " (18) .

وقد خلصت من هذا التحليل المتواضع إلى جملة من النتائج نذكر منها :

ــ إن النظرة العامة للبنية المنطقية في كتب **الغزالي** تمكننا من القول إن نتاجه المنطقي يمكن إدراجه ضمن محاولة المزج و التوفيق بين الفكر اليوناني والتفكير الإسلامي العربي ، حيث تم استعارة الصورة المنطقية وإدخالها في اطر المادة الإسلامية ، وبهذا صيغت الأصول والاقييسة الفقهية في قوالب عقلية ، وأسندت إلى ضوابط ومعايير ثابتة.

ــ ــ إن **الغزالي** لم ينحرف في إدخاله المنطق على علوم المسلمين ، ولم يقدم القياس المنطقي **بإطلاق** على القياس الأصولي كما اتهمه البعض ، بل كان غرضه تقوية الاستدلال الإسلامي وضبطه ، فوظف القياس المنطقي من اجل تصحيح القياس الأصولي وتجديده ، وإعادة النظر في بنيته القائمة (الركن ــ الأصل ــ الفرع ــ العلة) عن طريق رده إلى أنماط القياس المنطقي وذالك بتعديل حكم **الأصل** وتحويله إلى **قضية كلية** تصبح هي المقدمة الكبرى في القياس المنطقي ومثال ذالك في الفقهيات :

النبيذ حرام قياسا على الخمر ، وعلة تحريم الخمر هي الآسكار ، ومن ثمة فان حكم الأصل يمكن أن يحول إلى حكم أو قضية كلية ، وهي كل مسكر حرام ، فنحصل على قياس حملي ، بدل قياس تمثيلي ، صورته :

كل مسكر حرام ـــــ النبيذ مسكر ـــــ فينتج : النبيذ حرام .

ـــــ التوجه الصوري المحض ، أي تجريد المنطق الأرسطي والاعتماد على صوريته – دون مادته – باعتبار أن المنطق الصوري مجموعة من التصورات والأحكام والبراهين التي تقوم على جملة من العلاقات المجردة، وبهذا سبق **الغزالي** مفكرو العصور الحديثة، ومنهم " **كانط** "(1764 – 1804) الذي اعتبر المنطق الأرسطي أكمل منطق ظهر في التاريخ.

ــ تمسك **الغزالي** بالمنهج العقلي وإيمانه بيقينية المنطق، وان أنكر على الفلاسفة قصور البرهان الفلسفي عن الوصول بالإنسان حين يطبقه في الإلهيات إلى درجة اليقين ، فذالك لا يعني وقوعه في التناقض أو العدول عن موقفه الأولي ، وإنما المقصود أن قصور استعمال العقل والقياس البر هاني في ما وراء الطبيعة فقط ، فكان هذا سبقا للفيلسوف الألماني " **كانط** " في موقفه من الميتافيزيقا ، فالغزالي لم يوافق الفلاسفة في الاعتماد المطلق على العقل في بلوغ الحقيقة ، كما لم يوافق المتصوفة على تعطيل دور العقل في تحصيلها ـــــ فكم من صوفي بقي في خيال واحد حينا من الدهر .. ولو أتقن العلوم لتخلص منه على البديهة ـــــ (19)، وإنما وقف موقفا وسطا ، فثمة مصدرين للعلم اليقيني هما الإلهام والأدلة العقلية ، أي الجمع بين الإيمان والعقل .

ــ لقد كانت النظرية المنطقية عند **الغزالي** محاولة متقدمة في الأبحاث الإسلامية ،وقفـــــــزة منهجية في الفكر العربي الإسلامي في عصرها ، فقد جعل من المنطق وسيلة أساسية لتطهير الذهن من الأفكار الفاسدة ، وأداة ضرورية لإقناع الخصوم والملا حدة ، ودحض حججـــــهم ورد مغالطاتهم ، وبهذا لم يعد المنطق يدرس لذاته ، بل لخدمة أغراض عقائدية واجتماعية وتربوية ، لكن روح التزمت والتقييد لم تتح تاريخيا لهذه التجربة المنطقية التطور ، نتيجة ما واجهته من معارضة ، فسقطت دعوى **الغزالي** ، وانهارت معها محاولات الدقة العلمية ، والضبط المعياري المنطقي .

الهوامش :

ــ 1ــ رينان ، ابن رشد ، باريس 1866 ، ص.97 .

2 ــ علي سامي النشار ، مناهج البحث عند الإسلام ، دار النهضة العربية ، بيروت ط 3 ، 1984 ،ص 185.

3 ــ الغزالي المستصفى في علم الأصول ، المكتبة التجارية ، مصر ، ط 1 ، ج1 ص 7.

4 ــ ابن تيمية ،شرح العقيدة الأصفهانية ، القاهرة ، ص124 .

5 ــ الغزالي ، معيار العلم في فن المنطق ،دار الاندلس ، بيروت ــ لبنان ، بدون تاريخ ص160.

6 ــ التعليمية ، نسبة إلى التعليمي ، وهو ذالك الذي يتبع الإمام المعصوم ، وقد راجت هذه الفكرة عند غلاة الشيعة ، والامامية ، وغيرهم من الفرق الباطنية القائلة بضرورة تقليد المؤمن للإمام المعلم ، إذ هو الوسيلة الوحيدة لمعرفة الحق والباطل ، والاعتقاد بذالك جزء من الإيمان ، وقد افرد الغزالي مؤلفات كاملة للهجوم على قضايا التعليمية ، ومنها : "المستظهري" ،" فضائح الباطنية " .

7 ــ الغزالي ، المستصفى ، مصدر سابق ، ص 6.

8 ــ الغزالي ، معيار العلم، مصدر سابق ، ص .29

9 ــ الغزالي ، القسطاس المستقيم ، دار المشرق، ش م م ،بيروت ــ لبنان ،ط 3 1991 ، ص46.

10 ــ البقرة ، الآية 258 .

11ـــ الأنعام ، الآية 76 .

12 ــ الأنعام ، الآية 91 .

13 ــ الأنعام ، الآية .91

14 ــ الغزالي ، المستصفى ، مصدر سابق ، ص 43.

15 ــ الغزالي ، المنقذ من الضلال ،مكتبة الهلال ، بيروت لبنان ، ط 1 ، ص.9

16 ــ نفس المصدر ، 27.

17 ــ الغزالي ، تهافت الفلاسفة ، ص 71.

18ــ ــ الغزالي ، المستصفى ، مصدر سابق ، ص 19